E-ISSN: 2789-3359 || P-ISSN: 2789-7834 || AIF: 0.5 GIF: 1.5255

قراءة في تمثلات العجائبي والعجيب في أحداث السيرة النبوية

Reading in the representations of the miraculous and the wondrous in the events of the Prophet's biography

د. جوهرة القدس عكية: أستاذة وباحثة من المملكة المغربية

Dr. Jaouharat Al Qods Aggya: Academic Lecturer and Researcher, Morocco.

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى بلورة تصور متماسك عن تجليات العجائبي والعجيب، ورصد إواليات اشتغالهما ضمن نصوص السيرة النبوية، والنصوص المؤسسة لمتخيل الثقافة العربية والإسلامية. ولتحقيق أهداف البحث استخدمت الباحثة مقاربة تحليلية تهدف إلى تفكيك الظواهر ودراستها دراسة تفصيلية. وقد توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها أن "العجيب" عام يحيا داخل النصوص الدينية، ويستدعي الوقوف أمام إعجاز القرآن الكريم وعظمة الله عز وجل. أما "العجائبي" فخاص ينشط في النصوص الأدبية، ويفرض حضور القارئ والشخصية معا في الأثر الأدبي، ويستوجب خلق الحيرة والتردد والاندهاش الناجم عما يعترض القارئ والشخصية من أحداث فوق الطبيعية. وأن هذا "العجيب" يمثل في النص الديني شكلا من العقيدة الراسخة، فهو كلام الله عز وجل الذي أوحى به لنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن بأية حال أن ندخله في جنس "العجائبي" الذي يظل كلام بشر، وشكلا أدبيا له خصائصه وسماته المميزة.

الكلمات المفتاحية: العجائبي، العجيب، السيرة النبوية، الحدث فوق الطبيعي، الأحداث المقدسة.

Abstract:

This research seeks to crystallize a coherent conception of the manifestations of the miraculous and the wondrous, and to monitor the priorities of their work within the texts of the Prophet's biography, and the texts founding the imagination of Arab and Islamic culture. To achieve the objectives of the research, the researcher used an analytical approach aimed at dismantling the phenomena and studying them in a detailed study. The research has reached a set of results, the most important of which is that the "wonderful" is a year that lives within religious texts, and calls for standing in front of the miracle of the Holy Qur'an and the greatness of God Almighty. As for the “wonderful” one, it is active in literary texts, imposing the presence of the reader and the personality together in the literary work, and necessitating the creation of confusion, hesitation and astonishment resulting from the supernatural events that confront the reader and the character. And that this “wonderful” represents in the religious text a form of a well-established

belief, as it is the word of God Almighty who revealed it to his noble Prophet, and we cannot in any way include it in the "wonderful" genus, which remains human speech, and a literary form that has its own characteristics and distinctive features.

Keywords: miraculous, wondrous, prophetic biography, supernatural event, sacred events.

المقدمة:

يعد العجائبي أو ما يسمى ب "Fantastique" في النقد الغربي نمطا خاصا، وجنسا أدبيا مستقلا بذاته، يقوم على تداخل الواقع بالخيال، وتوظيف المسخ والتحويل والتشويه، مما يولد لدى القارئ/ المتلقي حيرة بين عالمين متناقضين؛ عالم الحقيقة المادي المحسوس وعالم الوهم والتخييل. إنها حيرة بين حالتي التوقع المنطقي والاستغراب غير الطبيعي أمام حدث خارق للعادة لا يخضع لضوابط العقل والمنطق، وقوانين الطبيعة. فالعجائبي حسب "تزفتان تودوروف" هو"التردد الذي يحسه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعية، فيما يواجه حدثا فوق الطبيعي حسب الظاهر"(تودوروف، 1993، 18)، فحالة التردد التي يشعر بها القارئ تجاه الأحداث، والظواهر الغريبة، تجعله يفسرها انطلاقا من المسببات الطبيعية أو فوق الطبيعية، غير أن التردد بين هذه المسببات هو الذي يخلق هذا التأثير العجائبي.

إن هذا التعريف يحيلنا على تلك القيود التي وضعها "تودوروف" لتعريف الأدب العجائبي، إذ "لا بد أن يحمل النص القارئ على اعتبار عالم الشخصيات كعالم أشخاص أحياء، وعلى التردد بين تفسير طبيعي وتفسير فوق الطبيعي للأحداث المروية. ثم قد يكون هذا التردد محسوسا بالتساوي من طرف شخصية؛ على ذلك يكون دور القارئ مفوضا إلى شخصية، وفي نفس الوقت يوجد التردد ممثلا، حيث يصير واحدة من موضوعات الأثر؛ ويتوحد القارئ مع الشخصية، في حالة قراءة ساذجة" (تودوروف، 1993، 54). فالعجائبي ينهض أساسا على تردد القارئ الذي يتوحد بالشخصية الرئيسة، منفعلا أمام غرابة حدث لا يمكن إدراكه أو تصنيفه نهائيا.

وعلى هذا الأساس، يتحدد "العجائبي" بالنسبة إلى مفاهيم أخرى، من قبيل؛ "العجيب" و"الغريب"، فإذا اعتبر القارئ أن ما يجري أمامه أمر غيبي يفسر بطريقة اعتقادية، كان ذلك مما يدخل في مجال "العجيب"، وهو نوع من الأدب يوظف الظواهر فوق الطبيعية لأغراض أخلاقية أو

دينية، ولا يكون فيه الحدث فوق الطبيعي مقلقا ولا مثيرا للخوف. وأما إذا حاول القارئ التماهي مع السارد وإيجاد تفسير ومبرر لتلك الظواهر فوق الطبيعية، دخل في مجال "الغريب" القابل للفهم والإدراك، إذ الغاية منه لفت الانتباه وإثارة الفضول. فأما ما كان مستعصيا عن الفهم، وغير قابل للإدراك، فهو "العجائبي" الذي لا يدوم إلا لحظة التردد.

ومهما يكن من أمر، فإننا نستنتج أن "العجائبي" شديد الارتباط بالنصوص السردية، إلا أنه يتاخم "العجيب" الذي هو وثيق الصلة بالنصوص الدينية. فالنص القرآني يحفل ب"العجيب"، وبالقوى فوق الطبيعية من جن وشياطين، وبالمعجزات التي وردت ترسيخا لقيم الخير، ودرء للشر واجتثاثه، وتأكيدا للقدرة الإلهية وتأملا في الحكمة الربانية، تلك "الحكمة اللانهائية التي تسهر على نظام المخلوقات العجيب" (أركون، 2002، 22).

تتمثل مشكلة البحث في محاولة الكشف عن الكيفية التي نقل بها الحدث المقدس، وإبراز خصوصية هذا النقل في نصوص السيرة النبوية، والتي كانت مرتعا خصبا لتسييق العجيب والعجائبي ضمن متونها، إضافة إلى رصد الطريقة التي تم بها تقديم هذا الحدث المقدس، وصيغة التعبير عنه، علما بأن الحدث المقدس لا يكمن في النص، ولكن في طريقة التعبير عنه، وفي كيفية تبلور الحدث المقدس حين تسييقه في سياق "عجيب" السيرة النبوية.

حاولت الباحثة في هذه الدراسة تبني مقاربة تحليلية ترتكز على تفكيك الظواهر المختلفة إلى مكوناتها الأولية، ودراستها دراسة تفصيلية، وفهم أنماط التفاعلات الموجودة فيما بينها، مع استنباط القوانين العامة التي تحكمها.

توطئة:

بالعودة إلى المعاجم العربية، نقف على الأرضية المعجمية المؤسسة لماهية الجذر اللغوي (ع.ج. ب)، إذ ربط ابن منظور تحققه بقلة اعتيادية الأمر، "العُجْبُ والعَجَبُ إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده. وجمع العَجَب أعجاب، (...) فأصل العَجَب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: قد عجبت من كذا. والعَجَبُ النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد. وقصة عجب وشيء معجب إذا كان حسنا جدا. والتعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله. وأعجبه الأمر سره"(ابن منظور، ع.ج.ب). وهو نفس التعريف اللغوي الذي يورده "الفيروز آبادي" في "القاموس المحيط"، قائلا: "عَجِبَ منه: عَجَباً وعَجْباً وعُجْباً: أنكره لقلة اعتياده إياه. والعجب: روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، يقال هذا الأمر عجَبٌ، وهذه قصة عَجَبٌ، وعَجَبٌ عاجب: شديد المبالغة. والعجيب:

ما يدعو إلى العَجَب"(الفيروز آبادي، ع.ج.ب). بمعنى أن المفهوم اللغوي، الذي انبثق منه المفهوم الاصطلاحي للعَجَب، هو الإنكار والاستحسان والاستعظام ومخالفة المألوف. وهو الأمر الذي أثبته صاحب "المنجد في اللغة والأعلام" بقوله: "عَجِبَ عَجَباً من الأمر، وعَجِبَ له: أخذه العجب منه، وعَجبَ إليه: أحبه. عَجَّبَ وأعْجَبَ: حمله على العجب. أُعْجِبَ بالشيء: سَرَّهُ الشيء وعَجِبَ منه. العَجَبُ: فعل نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه. وعَجِبَ من الله: الرضى. العُجاب: ما جاوز حد العجب. ويقال: عَجَبٌ عُجَابٌ وعَجِيبٌ في المبالغة. والعَجَبُ والعُجَّابُ والعَجِيبُ ما يتعجب منه. العجيبة جمع عجائب. والأعجوبة جمع أعاجيب: اسم لما يتعجب منه"(معلوف، 488).

إن ما يمكننا ملاحظته من خلال هذه التحديدات، أن الجذر اللغوي "ع.ج.ب" قالب لا تتغير حروفه، إلا أن دلالته تتحدد وتتشكل بموجب تغير الحركة الإعرابية. وعن اختلاف معاني هاته الدلالات المعجمية، نسوق ما أورده "الفراهيدي" في "معجم كتاب العين" أن: "عجب عجبا، وأمر عجيب وعَجَب وعُجاب (...)، أما العجيب فالعجب، وأما العُجاب فالذي جاوز حد العَجَب. ونقول هذا العجب العاجب، أي العجيب (...)، وفلان مُعجب بنفسه إذا دخله العُجْبُ "(الفراهيدي، 235). وبهذا، يكون "الفراهيدي" قد ربط لفظة (عُجْب) بالكبر والزهو بالنفس والغرور، وجعل العُجاب ما جاوز حد العَجَب والعجيب، بمعنى أن صيغة المبالغة (عُجاب)، التي على وزن (فُعال)، أقوى دلالة على خرق المألوف من المصدر (عَجَب) والصفة المشبهة (عجيب). ومن هنا، تصبح مختلف الصيغ المنحوتة من المادة المعجمية (ع.ج.ب)، مدعاة ومثارا للعجب. ولعل أبرز مثال في تجلية معاني هذه الصيغة وتوضيحها، ما لمسناه من تسرب للكلمة باشتقاقاتها، السالفة الذكر، داخل القرآن الكريم، من ذلك ورودها بمعنى الاندهاش والانبهار أمام حدث غير مألوف، في قوله تعالى: " وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ "[ص: 4]. وقوله سبحانه: " بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ "[ق:2]. وأيضا " أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ "[النجم: 59]. ومما جاء بمعنى الخارق للعادة ولمألوف الناس، قول الله عز وجل: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ "[هود: 72 -73]. وأما ما ورد بمعنى الاستهجان، ما جاء في قوله تعالى: " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ "[التوبة: 25]. وأيضا قوله جل في علاه: " وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ "[المنافقون: 4].

ومن ثم، فإن الجذر اللغوي (ع.ج.ب) يحيل على دلالات متعددة؛ كالروعة والعظمة والانبهار والاندهاش والخارق للعادة، لكن مهما اختلفت هاته الدلالات المنحدرة من هذا الجذر وتباينت، فإنها تفضي إلى أن أصل "العجب" في اللغة، هو رد فعل على استحسان أو إنكار شيء نادر، قليل الوقوع وغير مألوف، وفي الغالب الأعم، يكون إما بالإنكار أو الاستحسان.

وعلى الرغم من اختلاف المعاجم اللغوية التي تناولت مادة (ع.ج.ب)، إلا أنها لم تخرج عن كون "العجيب" و"العجائبي" رد فعل تجاه ظواهر فوق طبيعية، غير مألوفة، ونادرة الوقوع، وأحداث خارقة للعادة، ومستغلقة على الفهم.

تماشيا مع هذا الأفق، يتشكل "العجيب" من عنصرين أساسين؛ الأول يتحدد في عالم فوق طبيعي متجل في القدرة الإلهية الخارقة والمعجزة، وغير قابل للإدراك وفق قدرات الفهم الإنساني، لأن حقيقته ومجال اشتغاله قائمين في العقيدة الروحية، بينما الثاني يتمثل في إعجاز النظامين التركيبي والخطابي، المتحكمين في اشتغال اللغة وطرائق السرد القرآني. فـ"العجيب" يختلف كليا عن "الغريب" الذي اعتبره القزويني "كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إما من تأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكية أو أجرام عنصرية، كل ذلك بقدرة الله تعالى"(القزويني: 15).

عجيب حدث ولادة الرسول وبشارات النبوة:

تدلنا الأخبار الثابتة عن حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة - وتحديدا ما ذكر عن ولادته - أنه ولد في أشرف بيت من بيوت العرب، وهو من أشرف فروع قريش، بني هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب ، وأزكاها نسبا، وأعلاها مكانة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الخلق ، فجعلني من خيرهم من خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتا". ولمكانة هذا النسب الشريف لم نجد قريشا تطعن النبي في نسبه بينهم، رغم أنها طعنت فيه بأشياء كثيرة مفتراة غير هذا الأمر. ويذكر ابن إسحاق " أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ قال: نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بَهْمًا لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا، ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة

من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها "(ابن هشام، 166-167). وقد ثبت في الصحيح أن حدث شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل جبريل عليه السلام، حصل له مرتين؛ مرة في صغره، ومرة قبل عروجه إلى السماء السابعة. وفي شق الصدر نزع مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل ينزل به ليوسوس، هذا فضلا عن إعداد الله تعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لتلقي الوحي.

ولا شك أن في هذا الأمر، كشف لاستجابة الله تعالى دعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وإثبات لعلو شأن نبينا محمد صلوات الله عليه، وكمال شرفه، وبيان لشرف العرب وما حباهم ربهم تعالى به من بعثة أفضل أنبيائه، وإقرار بأخذ الله عز وجل الميثاق على جميع أنبيائه ورسله، بأن يؤمنوا به وينصروه. وتبعا لذلك، أخبرت بظهوره الأنبياء، وبشرت به التوراة والإنجيل، وذكر فيهما باسمه وصفاته، قال الحق سبحانه: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [الأعراف: 157]، وأيضا قوله تعالى: " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ " [الصف: 6]. وقد كان ذكره على لسان اليهود والنصارى، وخاصة أحبارهم ورهبانهم سببا في إسلام الجماعة الأولى من الأنصار، وفي إسلام عدد كثير من كبار علمائهم، لما كان عندهم من علم بصفاته وقرب ظهوره، كعبد الله بن سلام بالمدينة، وكعب الأحبار باليمن، وسلمان الفارسي ... وغيرهم.

في نسبه الشريف:

تزوج عبد الله بن عبد المطلب الملقب ب"الذبيح" بآمنة بنت وهب بن عبد مناف، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا. وقد زوجه بها أبوه عبد المطلب على إثر نجاته من الذبح وفاءً بالنذر الذي نذره لله تعالى، إن رزقه عشرة من الولد ذبح أحدهم، ذلك أنه أري في منامه مكان زمزم - التي طمرتها جرهم عند مغادرتها مكة نقمة على أهلها الذين حاربوها وطردوها - وحاول إعادة حفرها، فمنعته قريش، ولم يكن له من ولد يعينه على تحقيق مراده إلا ابنه الحارث، ولما رزقه الله عشرة من الولد، اقترع على أيهم يكون الذبيح، فوقعت القرعة على عبد الله، فأخذ الشفرة وساقه إلى الكعبة، وهم أن يذبحه عندها، فمنعته قريش، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة بالمدينة تفتيه في أمر ذبح ولده، فأرشدته إلى أن يضع عشرا من الإبل، وهي دية الفرد عندهم ، وأن يضرب بالقداح

على عبد الله وعلى الإبل، فإن خرجت على عبد الله زاد عشرا من الإبل، وإن خرجت على الإبل فانحرها، فقد رضيها ربكم، ونجا صاحبكم. ولما قدموا مكة، وجيء بالإبل وصاحب القداح، وعبد المطلب قائم عند هبل داخل الكعبة يدعو الله عز وجل، وصاحب القداح يضرب بها، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشرا من الإبل حتى بلغت مائة، فقال رجال من قريش: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات ففعل، فكانت في كل مرة تخرج على الإبل، وعندها رضي عبد المطلب ونحر الإبل ونجى الله تعالى عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعليه، نستطيع أن نقول إن عجيب هذا الحدث يحاكي ويماثل عجيب قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل، وإذا كان إسماعيل عليه السلام الذبيح الأول في تاريخ البشرية، الذي فداه الله رب العزة والجلال بكبش عظيم من السماء، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تصديقا لرؤية أبيه إبراهيم عليه السلام، فكانت البشرى بإسحاق نبيا جزاء على صدق إيمانه وإحسانه، فإن عبد المطلب فدى ولده عبد الله بمائة من الإبل وفاء بالنذر، فكان من ذريته خاتم الأنبياء والمرسلين. وبهذا يكون عبد الله ثاني الذبيحين الواردين في قوله عليه السلام: " أنا ابن الذبيحين ".

ولئن كان الله عز وجل قد منَّ على عبد المطلب بكرامة إعادة حفر بئر زمزم المطمورة، إذ وافقته قريش على حفرها دون غيره من أهل مكة، والماء الذي نبع من تحت خف ناقته عندما أوشك على الهلاك مع قومه من فرط العطش وطول الطريق ونفاذ مائهم، فقد أكرم قبل ذاك نبيه إبراهيم وولده إسماعيل بأن خصه بمعجزة انفجار نبع زمزم من تحت قدميه، حين ترك مع أمه هاجر بواد غير ذي زرع، بلا زاد ولا أنيس. ومن ثمة، فإن كان إبراهيم الخليل قد بنى البيت الحرام ورفع قواعده مع ولده إسماعيل، ودعا ربه عند ه، فإن عبد المطلب هو الآخر توجه بالدعاء إلى الله تعالى عند هبل داخل الكعبة استشفاعا به وتوسلا إليه. ويتبدى لنا من فزع عبد المطلب إلى الله تعالى، أن مشركي العرب ما كان كلهم ملاحدة، بل كانوا مؤمنين بالله ربا خالقا ورازقا وحافظا ومدبرا. وهكذا، فهذه الكرامات وإن كانت في ظاهرها لعبد المطلب، إلا أنها في حقيقة الأمر آيات النبوة المحمدية وتباشير بطلوع الفجر المحمدي والميلاد المبارك.

في حمله المبارك ووضعه ورضاعه:

ولد محمد صلى الله عليه وسلم من نكاح شرعي لا من سفاح جاهلي - بعد وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب، إذ تركه حملا في بطن أمه آمنة بنت وهب، وسافر للتجارة ومرض في طريق عودته، فنزل عند أخواله من بني عدي ابن النجار فمات عندهم بالمدينة المنورة - وكانت ولادة رسول

الله محمد صلى الله عليه وسلم " في شعب بني هاشم بمكة، في صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة 571م"(المباركفوري،2005، 36)، أي بعد غزو أبرهة الأشرم وهزيمته قرابة خمسين عاما، فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد صلى الله عليه وسلم دالة على صدق نبوته وصحة رسالته وعظم شأنه في العالمين.

إن آمنة بنت وهب لما حملت بخير الأنام أتاها آت، فقيل لها "إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى، من أرض الشام"(ابن هشام، 158). سيما أنها لم تجد أثناء حملها به صلى الله عليه وسلم ما تجده الحوامل عادة من الوهن والضعف، ولعلها آية أخرى من بين جملة من الآيات التي بشرت بنبوته، مثل ولادته مسرورا، أي مقطوع السرة على خلاف المواليد في قطع القوابل سرارهم المتصلة بأمهاتهم، ثم إنه وقع من رحم أمه واضعا يديه بالأرض، رافعا رأسه إلى السماء، كذلك ولادته صلى الله عليه وسلم مختونا، يعني مقطوع غلفة الذكر فلم يختن كما يختن المواليد الذكور - وهذا ما جعل جده عبد المطلب يعجب به ، فقال سيكون لابني

هذا شأن عظيم، فحظي عنده بأكرم منزلة - أيضا انكسار البرمة التي وضعت عليه بعد ولادته على عادة النساء من قريش، إذ وجدت منكسرة على شقين ، ولم يبت يومها تحتها صلى الله عليه وسلم، علاوة عن خمود نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة، وارتجاج إيوان كسرى ملك الفرس، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وامتلاء البيت الذي ولد به نورا، ورؤية النجوم وهي تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد رأت ذلك أمه والقابلة التي كانت معها وحدثتا به.

وكانت العادة عند العرب الحضريين جلب المراضع لأولادهم من البوادي لتقوى أبدانهم وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لحفيده صلى الله عليه وسلم الرضعاء، وأول من أرضعته - بعد أمه آمنة بنت وهب - ثويبة مولاة أبي لهب، وقد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وبعد ذلك استرضع له جده حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، ومنذ أن حملته السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها على أتانها، وهي ترى الأسرار الإلهية والخيرات الربانية تتسارع إلى بيتها وأرضها وماشيتها ولبنها، الأمر الذي أنطقها بعد مرور الحولين، "وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها (بلاد بني سعد)، فكانت غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا شباعا لُبَّنا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعا ما

تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لُبَّنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا. فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكوثه فينا، لما كنا نرى من بركته"(ابن هشام،164).

وهكذا، كان استرضاعه صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد، شأنه شأن أبناء سادات قريش، يرضعون أولادهم في البوادي، ليبعدوا عن أمراض المدن، ويصحوا أجساما، ويفصحوا لسانا، ويقووا فؤادا. وفي هذا، يقول رسول الله معتزا بشرف أصله واسترضاعه في البادية، " أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر".

عجيب حدث الإسراء والمعراج:

يقصد بحدث الإسراء والمعراج في الثقافة العربية الإسلامية تلك الرحلة العجيبة التي انطلقت من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بالقدس المشرفة، وما عقبها من ارتفاع في طبقات السماوات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق، بعد ذلك العودة إلى المسجد الحرام بمكة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الرحلة في سورتين مختلفتين، في قوله تعالى: " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " [الإسراء:1]، وأيضا قوله سبحانه: " وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى " [النجم: 13- 18]، فتعليل الإسراء - كما نص عليه منطوق الآية الكريمة - هو ذلك الانتقال العجيب، بالقياس إلى مألوف البشر، والذي تم بقدرة الله عز وجل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، في سرعة تجاوزت حدود إدراك العقل البشري. وأما المعراج فهو الرحلة السماوية والارتفاع والارتقاء من عالم الأرض إلى عوالم السماء، حتى سدرة المنتهى، خاصة، وأن آيات المعراج دلت على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد، بالفعل، بعض آيات ربه الكبرى.

وفي هذا الإطار، أثير بين العلماء جدل ولغط كبيرين حول ما إذا كان هذا السري الخارق بالروح وحده، أم بالروح والجسد معا؟ إن حدث الإسراء والمعراج، وقع، بالتأكيد، للرسول صلى الله عليه وسلم في مرحلة بلغت الروح فيها قمة الإشراق، فخفت كثافة الجسد حتى تخلص من كل القوانين التي تحكمه، ذلك أن ما روي عن شق الصدر، وغسل القلب وحشوه، إنما هو إعداد لهذا الحدث العجيب، وفق ما ورد في رواية عبد الله ابن مسعود عن مسراه صلى الله عليه وسلم أنه أتي بالبراق، "وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها ، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه ، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهيا إلى بيت المقدس"(ابن

هشام، 397). فالبراق كائن يمشي بسرعة الضوء، ويشير اشتقاق هاته الكلمة إلى البرق، أي أن قوة الكهرباء سخرت للتنقل في الآفاق بسرعة البرق الخاطف، الأمر الذي يتعذر معه تنقل الجسم في حالته العادية والطبيعية، إلا إذا تم إعداده لذلك، كما هو الحال في مسرى نبينا الكريم.

وعليه، فاستكناه حقيقة هذه الرحلة، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق، مرتبط بإدراك العقل الإنساني لحقيقة المادة والروح، وما أودع الله فيهما من أسرار. لقد ذهب الجمهور من المفسرين والفقهاء إلى أن كلا من الإسراء والمعراج وقع في ليلة واحدة في اليقظة لا في المنام، فلم يكن رؤيا صادقة كما يرى البعض، بل هو حقيقة واقعة، ويؤكد ذلك قوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده"، لأن التسبيح إنما يكون لعظام الأمور، فلو كان مناما ما كانت قريش لتنكره، وما كان الحق سبحانه ليقول بعبده، بل بروح عبده، ثم لأنه حمل على البراق والروح لا تحمل، وإنما يحمل الجسد.

إن الإسراء كان من بيت أم هانئ، حيث أخرج منه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام - ما بين الحجر والحطيم - وأجريت له عملية شق الصدر، فأخرج القلب وغسل بماء زمزم المبارك، ثم أتي بطست من ذهب مملوء إيمانا وحكمة، فحشي القلب بهما. وأحضر البراق، فأسري بواسطته إلى بيت المقدس، فربطه في حلقة باب المسجد، آخذا بالأسباب، وصلى فيه، ثم وضع له معراج ممتد إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل عليه السلام، وأذن له، فانطلق مع رسول الله إلى سماء بعد سماء حتى انتهيا إلى السماء السابعة، ولاقاهما في كل سماء مقربوها من الملائكة والأنبياء، فلقيا في السماء الأولى آدم عليه السلام، وفي السماء الثانية يحيى وعيسى عليهما السلام، وهما ابنا خالة، وفي السماء الثالثة يوسف عليه السلام، وفي السماء الرابعة إدريس عليه السلام، وفي السماء الخامسة هارون عليه السلام، وفي السماء السادسة موسى عليه السلام، وفي السماء السابعة إبراهيم عليه السلام. و رفعت له سدرة المنتهى - وإذا ورقها كآذان الفيلة، وثمرها كالقلال، أي الجرار الكبيرة - وأتي بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذ اللبن، فقيل له إنها الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم رفع وأدني حتى انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، فقربه ربه وناجاه، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة. وفي عودته مر بموسى عليه السلام فقال: بما أمرك ربك؟ فأخبره، وطلب منه أن يعود إلى ربه ويسأله التخفيف، فما زال يراجع الله تعالى سائلا التخفيف حتى صارت خمس صلوات بدلا عن خمسين صلاة. بعد ذلك نزل بمعية جبريل عليه السلام إلى بيت المقدس، ونزل الأنبياء يشيعون رسول الله، فصلى بهم صلاة الصبح في المسجد الأقصى بالقدس، ومن ثمة ركب البراق وعاد إلى مكة المكرمة، وقد ذهب عنه الحزن والكرب والهم والغم، ذلك أن حدث الإسراء والمعراج وقع في السنة العاشرة من سني البعثة، وأنه مكافأة ربانية على ما لاقاه رسولنا الكريم من آلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شِعْبِ أبي طالب، ناهيك عن

وفاة عمه أبي طالب ، وزوجه خديجة رضي الله عنها، وسوء معاملة أهل الطائف، وما ناله منهم من أذى حين خرج يطلب ناصرا من ثقيف ينصره على قومه.

ومهما يكن من أمر، فإن حدث الإسراء والمعراج هو حدث إكمال البناء، هذا البناء نلمح من خلاله أواصر القربى بين كافة الأنبياء، ولعل التحيات المتبادلة بين رسول الله وأنبيائه أثناء معراجه من سماء إلى سماء توثق هذه الآصرة، ذلك أنه في كل سماء حل بها، إلا واستقبل فيها بعبارة "مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح". وقد أظهر رسول الله أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعهده من سبقوه، لقوله "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين".

ومن ثم، نقف في ليلة الإسراء والمعراج على حدث آخر لا يقل أهمية عن الحدث الرئيس نفسه، إذ شرعت الصلوات الخمس في السماء، وتحديدا في معراج النبي الكريم، لتكون معراجا يرقى بنفوس الناس إلى عوالم المقدس المتعالي، وعصمة لهم من دنس الدنيوي؛ على نحو، صارت الصلاة عماد الدين والركن الثاني من أركان الإسلام، بعد ركن الشهادتين، لجسارتها وفضلها، وهو ما يؤكد ثبوتيتها بالقرآن والسنة والإجماع.

عجيب حدث الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة:

كان لجهر الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته، بعد أن كثر عدد المسلمين، أن ازداد حنق المشركين، واشتد أذاهم للمؤمنين بمكة، فأمرهم النبي بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا مستخفين، ماعدا عمر رضي الله عنه، فإنه أعلم مشركي قريش بهجرته، قائلا: "من أراد أن تثكله أمه، فليلحق بي غدا ببطن هذا الوادي". ولما أيقنت قريش أن المسلمين قد أصبحوا في المدينة في عزة ومنعة، عقدت اجتماعا في دار الندوة للتفكير في القضاء على رسول الله، فقر رأيهم على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى جلدا، فيقتلوه جميعا، فيتفرق دمه في القبائل، ولا يقدر بنو مناف على حربهم جميعا، فيرضوا بالدية. وهكذا، اجتمع الفتيان الموكلون بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم على بابه ليلة الهجرة ينتظرون خروجه ليقتلوه. وحدث في تلك الليلة أن الحبيب المصطفى لم ينم في فراشه، وإنما طلب من علي رضي الله عنه أن ينام مكانه ويتغطى ببرده، وأمره إذا أصبح أن يرد الودائع التي أودعها كفار قريش عنده إلى أصحابها، ثم أخذ حفنة من تراب، وخرج يقرأ الآيات الأولى من سورة يس إلى حدود "فهم لا يبصرون"، إذ أعمى الله تعالى أبصارهم، فخرج من بين أيديهم، ووضع التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون، وانصرف إلى بيت أبي بكر - دون أن يشاهده من وكلوا بقتله - وكان قد

هيأ من قبل راحلتين له وللرسول صلى الله عليه وسلم، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارا، ثم يأتيهما مساء بما كان في ذلك اليوم من الخبر، كما خص بأمره عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهارا، ثم يريحها عليهما مساء، ليسقيهما من لبنها، وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام، أتبع عامر بن فهيرة أثرهما بالغنم، فطمس أثرهما. بعد ذلك خرج الحبيب المصطفى مع أبي بكر حتى لحقا بغار ثور قبل بزوغ الفجر، ولما انتهيا إلى الغار دخلاه، وكمنا فيه ثلاث ليال، وطلبهما المشركون طيلة الثلاثة أيام، فكانت من آيات النبوة أن العنكبوت نسجت بيتها على الغار، والحمامة عششت وباضت، تضليلا من الله للطالبين من المشركين. وقد وصلوا في الطلب إلى باب الغار، بحيث لو طأطأ أحدهم رأسه ونظر إلى قدميه لرآهما، فخاف أبو بكر رضي الله عنه، واشتد حزنه، وقال: يا رسول الله لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟ لا تحزن إن الله معنا "، وفي ذلك نزل قوله تعالى: " إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " [التوبة:40].

وحين انقضت ثلاثة أيام، وسكن الناس عنهما، وأيسوا من العثور عليهما، أتاهما من استأجراه بالراحلتين - وكانت أسماء تأتيهم بالطعام، وأرادت أن تعلقه فلم تستطع، فشقت نطاقها نصفين، فعلقت الطعام بنصفه، وانتطقت بالنصف الآخر، ومن ثمة، لقبت بذات النطاقين - وما إن ركبا راحلتيهما، وسارتا بهما نحو المدينة، وأهل كل دار من دور الأنصار فتحوا أبواب ديارهم مستقبلين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلين: هَلُمَّ إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة، وهم ممسكون بخطام ناقته، وهو يقول لهم دعوها فإنها مأمورة. وخرج كل أهل المدينة يستقبلون النبي الكريم عن بكرة أبيهم، وقد فرحوا بقدومه فرحا عظيما، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

وكان أول عمل عمله رسول الله بعد وصوله، أن اختار المكان الذي بركت فيه ناقته ليكون مسجدا له، وهو لغلامين يتيمين من الأنصار، فساومهما على ثمنه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله،

فأبى إلا أن يبتاعه منهما بعشرة دنانير ذهبا أداها من مال أبي بكر، ثم ندب المسلمين إلى الاشتراك في بناء المسجد، فأسرعوا إلى ذلك ، والرسول صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع المهاجرين والأنصار حتى تم بناء المسجد، فكانت القبلة في الشمال إلى بيت المقدس، وأخذ المسلمون يحضرون للصلوات الخمس في جماعة، ويتحينون أوقاتها، فمنهم من يتعجل ومنهم من يتأخر، فاستشاروا في علامة يعرفون بها حضور الصلاة، فقال بعضهم برفع النار، والبعض بالنفخ في البوق، وآخرون بضرب الناقوس، إلى أن رسوا على رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنداء بالصلاة جماعة، فقبل رسول الله هذا الرأي وعملوا به، فصار الآذان يرفع عند كل صلاة مكتوبة.

ومهما يكن من أمر، فإن المسجد النبوي بالمدينة المنورة أضحى أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وذلك لفضلها واستواء المساجد في الفضل دونها، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد؛ المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى". وفي بيان فضله يقول الحبيب المصطفى: "صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام"، وقال في رواية أخرى "من أتى مسجدي هذا، لا يأتيه إلا لخير يعلمه أو يتعلمه، كان كالمجاهد في سبيل الله". غير أن الشيعة تخالف أهل السنة في فضل هذه المساجد الثلاث، وفي فضل مدنها المقدسة؛ مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس المشرفة، وهو الأمر الذي سبق أن عرضنا له في الفصل الثاني من القسم النظري حين حديثنا عن مقدس أهل السنة ومقدس الشيعة. ومما يزيد المدينة المنورة حبا في قلوب المؤمنين، ورغبة في المقام بها حتى الموت، قوله صلى الله عليه وسلم: "من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أكون له شاهدا أو شفيعا يوم القيامة"، وحسب المدينة المنورة شرفا وفضلا أنها دار المقام لرسول الله، بها مسجده الشريف، وفيها قبره صلى الله عليه وسلم، ومنها مبعثه يوم الدين.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن أهل المدينة، وهم الأنصار، كان لهم شرف المسارعة إلى الإيمان، وإيواء الرسول والمهاجرين من المؤمنين، ونصرتهم، ومقاسمتهم العيش معهم، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " [الحشر: 9].

وهذا ما أقرته السنة النبوية في أحاديث كثيرة، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الأنصار واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار، ولو سلك الأنصار

وشعبهم، الأنصار شعار، والناس دثار"، وأيضا قوله: " الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله ".

ويفيد هذا أن حب الأنصار لإخوانهم المهاجرين وإيثارهم على أنفسهم حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على وضع ميثاق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، متضمنا في ذات الآن موادعة اليهود بالمدينة، فألف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود، وصاروا أمة مستقلة بذاتها. وبهذا الميثاق انتظم المسلمون واليهود والمشركون من ساكني يثرب في كيان واحد، وأصبحت المدينة المنورة وضواحيها دولة ذات استقلال وسيادة، ونشط الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله، وتبعه في ذلك المسلمون، فكان يحضر مجالس المسلمين وغير المسلمين، يتلو عليهم آيات الله، ويدعوهم إلى الحق، ويزكي من آمن منهم بالله، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وهكذا، تم التأسيس للمجتمع الإسلامي القائم على العدالة الاجتماعية، والتسامح الديني والتعاون على البر والتقوى لما فيه خير الأمة الإسلامية. وبترسيخ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، وإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، أصبح للمسلمين كيانهم المستقل، وصاروا يؤرخون أحداثهم بالتاريخ الهجري حيث أجمعت العديد من الروايات على أن العمل بالتأريخ الهجري بدأ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بمشورة واتفاق مع الصحابة رضوان الله عليهم، حيث أطلقوا على كل سنة اسما خاصا بها، فكانت السنة الأولى تسمى سنة الإذن، والسنة الثانية سنة الأمر، والسنة الثالثة سنة التمحيص، والسنة الرابعة سنة الترفئة، والسنة الخامسة سنة الزلزال، والسنة السادسة سنة الاستئناس، والسنة السابعة سنة الاستغلاب، والسنة الثامنة سنة الاستواء، والسنة التاسعة سنة البراءة، والسنة العاشرة سنة الوداع. وتبعا لذلك، يكون ميثاق التحالف أول وثيقة سياسية في الإسلام تمثل الدستور الذي تتعايش بمقتضاه كل العناصر المشكلة للمجتمع المدني الإسلامي.

وعليه، نستطيع أن نقول إن حدث هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة من أبرز الأحداث المقدسة التي غيرت مجرى التاريخ الإسلامي، ذلك أن حدث الهجرة خصوصية تميز تاريخ المسلمين عن غيرهم، فكانت تلك النقلة مرحلة مفصلية في تاريخ البشرية، إذ نعتبرها هجرة التغيير نحو الأفضل؛ هجرة التطور، والإصلاح، فمعها بدأ تأسيس الدولة الإسلامية؛ دولة الحق، والعدل، والأخلاق التي حمل لواءها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقوله: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

الخاتمة:

يتبدى مما سبق، أن السيرة النبوية تتبلور ملامحها من مصادر شتى؛ القرآن الكريم، والسنة النبوية، والشعر العربي المعاصر لعهد النبوة، وكتب السيرة، وكتب التفسير، والإسرائيليات، ومرويات الإسراء والمعراج ... وغيرها. وقد امتاحت السيرة النبوية من القرآن الكريم الكثير من الأحداث المقدسة التي شكلت عجيبها، من ذلك نشأة رسول الله " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى " [الضحى: 7-6]، وحدث شق الصدر " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ " [الشرح: 2-1]، وحدث نزول الوحي " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ " [العلق:-1 2]، وحدث الإسراء والمعراج، وحدث الهجرة ، إضافة إلى الأحداث المتعلقة بالغزوات التي خاضها رسول الله مع الصحابة رضوان الله عليهم، كغزوة بدر" وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" [آل عمران: 123]، وغزوة حنين " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ " [التوبة: 25]. على نحو، أن القرآن الكريم لم يتعرض لتفاصيل الحدث المقدس، في شقه الخاص بسيرة رسول الله، بصورة متكاملة عن حياته صلى الله عليه وسلم، بل إنما تعرض له بشكل مجمل. فمثلا حين يتحدث القرآن الكريم عن إحدى الغزوات، لا يذكر أسبابها، ولا عدد المسلمين والمشركين فيها، ولا عدد القتلى والأسرى من المشركين، بل يلمح النص القرآني إلى عبر وعظات يستعرض من خلالها قدرات السارد، وهذا شأن القرآن الكريم في كل ما أورده من قصص عن الأنبياء السابقين والأمم البائدة. ولما كان من الثابت المتواتر أن القرآن الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، مذ ظهرت الرسالات والكتب السماوية، مما لا يدع مجالا للتشكيك بنصوصه وثبوتها التاريخي، فإن ما يعرض له من وقائع وأحداث، حفلت بها السيرة النبوية، جعله أصح مصدر لهذه السيرة على الإطلاق. لهذا، فإن سيرة رسول الله سيرة شاملة لكل النواحي الإنسانية في المجتمع، فهي تجسد سيرة المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد عيش حياة كريمة، والفوز بالدارين، مصداقا لقوله تعالى: " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " [الأحزاب:21].

نتت-

النتائج:

- إن مفهوم "العجائبي" يوظف في النقد كبديل عربي لمفهوم "الفنتاستيك" التقليدي الغربي، الذي نعده جنسا أدبيا يملك من المقومات النظرية، ومن التراكم النصي ما يكفي ليستقل بذاته، ومن ثمة، نسجل أن مفهوم "العجائبي" بخلاف نظيره الغربي، لا تزال حدوده غير واضحة المعالم،

إذ يتقاطع مع أجناس أدبية أخرى أكثر وضوحا مثل "العجيب" و"الغريب"، فلو حاولنا إيجاد تعريف لمفهوم "العجائبي" جامع ومانع، فإن الأمر سيشكل علينا، لأن "تودورف" نفسه، وهو صاحب السبق في التأصيل للمفهوم، ظل مترددا في تجنيسه بشكل قطعي، حيث أشرك القارئ في تحديده واشترط في تلقيه التردد كحالة تتلبس بالمتلقي.

- إن "العجيب" هو كل ما من شأنه أن يخلف أثرا إيجابيا لدى المتلقي، لكون الحدث المتعجب منه مستحسن يثير الاندهاش والإعجاب إنْ لروعته أو لعظمته، في حين أن "الغريب" كل ما يترك أثرا سلبيا في نفسية المتلقي، إما لغرابة الحدث، أو لشذوذه، أو لما يبثه من خوف ورعب، كتحول الشخصية إلى شيطان مارد أو كائن ماسخ.
- إن "العجائبي" العربي يظل مفهوما أصيلا ومتأصلا في الثقافة العربية والإسلامية، كونه نشأ في كنف المتون والنصوص المؤسسة للمتخيل العربي الإسلامي، بحيث أسهمت مكوناته في نسج وإعادة تكييف أحداث هاته النصوص، وتمثيل مرجعياتها الثقافية والتعبير عن رؤاها.
- إن الأحداث العجيبة التي واكبت ميلاد الرسول وحمله ورضاعه، تعد إعلانا فعليا عن نبوته، وإعلاما بعلو شأنه، وإخبارا بما سيؤول إليه أمر النبي الكريم. ومدعاة للخير العظيم الذي كتبه الله للإنسانية حين أكرمها بمولد خاتم الرسل والأنبياء، فكانت بعثته تحقيقا لبشارة عيسى بنبي يأتي من بعده تختم به الرسالات السماوية، وإجابة لدعاء إبراهيم " رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " [البقرة: 129].
- إن عجيب حدث الإسراء والمعراج، آية من آيات الله تعالى التي لا تعد ولا تحصى، ورحلة نحو العوالم الأخروية، أكرم بها الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأطلعه فيها على عجائب آياته الكبرى، ومنحه عطاء روحيا ودعما معنويا، تثبيتا لفؤاده، وتمحيصا للمؤمنين، وتمييزا للصادقين منهم، ليكونوا بذلك خليقين بصحبة الرسول الكريم في الهجرة إلى المدينة المنورة، وما سيلي ذلك من مراحل البناء والتأسيس لدولة الإسلام.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق وشرح ؛ مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، الجزء الأول، المكتبة العلمية، بيروت (د.ت).
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الجزء الأول، دار الرشيد، العراق، (د.ت).

- زكريا القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، حلب، (د.ت).
- محمد أركون: العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، ترجمة: عبد الجليل الأزدي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2002.
- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، بيروت، 2005.
- تزفتان تودوروف: مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، تقديم محمد برادة، دار الكلام، الطبعة الأولى، الرباط، 1993.
- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، 1990.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، 2008.
- لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والأعلام، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة التاسعة عشرة، بيروت، (د.ت).